الفنون العربية الأسلامية

المنسوجات

المرحلة الثالثة إسلامي

م.م علي احسان عبد علي

الفصل الأول
المنسوجـــات
Textiles

تمهيد

ورث العرب المسلمون بعض التأثيرات من الأقوام التي سبقوهم، ولكنهم استمروا بتطوير هذه الصناعة حتى ارتقت على أيديهم إلى مراحل متطورة، وهنا يجب أن نذكر أن من أهم مبادئ العرب التي تمسكوا بها في شتى فروع الحياة لا سيما في النواحي المادية من صناعات وفنون هو أن يبدأ من حيث انتهى المتقدمون عليهم، ولقد كان لهذه السياسية التي وضع جذورها الرسول الكريم(ﷺ) والخلفاء من بعده أثر عظيم في نضوج الفن الإسلامي.

لذلك نجد أن فن النسيج في صدر الإسلام قد استمر يسير على النمط الذي سبقه، ويجب أن يشير إلى أن المنسوجات من المواد العضوية القابلة للتلف لذلك ما وصلنا من المنسوجات السابقة تعتبر قليلة جداً، ولذلك فإننا نستعين بما كتبه لنا المؤرخون في هذا المجال، وما تبقي من نماذج قليلة في بعض المتاحف فقد أشار المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) إلى أن نوع من النسيج عرف ب(البز) المصنوع في البصرة أول مدينة مصرت بالعراق في الإسلام سنة ١٤ هجرية على يد القائد عتبة بن غزوان، وقد أشار المقدسي إلى نوع (البز) المنسوج في البصرة والكوفة، أما مدينة السلام (بغداد) عاصمة الخلافة العباسية منذ سنة ١٤٦هجرية (استناداً إلى أول درهم مضروب بمدينة السلام كان في سنة ١٤٦هجرية). فقد كانت هذه المدينة تنتج أنواع كثيرة من المنسوجات منها (المنسوجات العتابية) نسبة إلى أحدى محالات مدينة السلام (بغداد) وقد قلد النسيج العتابي المصنوع بمدينة السلام في الأندلس وعن الأندلس انتقلت صناعته إلى أوربا حيث عرفه النساج الايطاليون والفرنسيون خلال العصور

الوسطى وأطلقوا عليه اسم (Tabis) وقد وصفته بعض المراجع الأوربية بأنه كان نوع من الحرير المموج، وعلى أساس هذا الوصف فإن العتابي الغربي هو تقليد للعتابي الشرقي، وقد أمكن تميز هذا النوع من القماش على وجه التقريب فهو أشبه ما يكونه بالقماش الحديث المموج.

استمرت صناعة النسيج في العراق تسير في سبيل التطور وفي أهم العوامل التي أدت إلى تطوير صناعة النسيج منها:

١- **كسوة الكعبة المشرفة (Curtain of kaba)** فقد كانت الكعبة قبل الإسلام تكسى بأنواع مختلفة من المنسوجات بقصد تجميلها، وظلت هذه العادة بعد الإسلام أيضاً. ومن هنا فقد كانت من العوامل المهمة في تجويد النسيج لعمل الأجود والأجمل.

٢- **منح الخلع (Khila,2)** وهي من العادات التي أحييت في الإسلام وقد أحياها الرسول الكريم محمد (ﷺ) عندما خلع على الشاعر كعب بن زهير بردته، وذلك أن كعب هذا كان قد هجا النبي الكريم (ﷺ) ثم فر من أمام المسلمين، ثم عاد تائباً إلى النبي الكريم ومدحه بقصيدته المشهورة والتي مطلعها.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيماً أثرها لم يعد مكبول

فكافأه الرسول (ﷺ) على ذلك لهذه القصيدة وتوبته بأن خلع عليه بردته التي كان يلبسها، وقد ظلت هذه البرده عنده يعتز بها ويحافظ عليها حتى كان زمن معاوية بن أبي سفيان (٤١ -٦٠هجرية) أول خلفاء بني أميه فطلب من الشاعر كعب بن زهير أن يبيعه هذه البردة فرفض، ولما مات كعب بن زهير استطاع معاوية أن يحصل عليها من أولاده بعشرين ألف درهم، وعندما سقطت الدولة الأموية، استولى العباسيون على هذه البرده من خزانه مروان بن محمد (١٢٧ – ١٣٢هجرية) أخر خلفاء بني أمية.

٣- **إهداء الملابس.**

إلى جانب كسوة الكعبة وعادة منح الخلع كانت الملابس أيضاً مفضلة عند الإهداء، وقد ورد في بطون الكتب العديد من ذكر إهداء الملابس سواء قبل

الإسلام أو بعده، فقد أهدى ملك الصين إلى كسرى ملك الفرس ثوباً حريراً يزدان بصورة الملك وهو جالس على العرش وكانت الصورة منسوجة بخيوط الذهب على الحرير الأزرق وقد أهدى ملك الروم إلى ملك الفرس عدة أشياء من بينها ألف ثوب من الديباج منسوج بالذهب وملون بألوان مختلفة وقد ذكر المؤرخ المقريزي في خططه أن المقوقس عظيم القبط أهدى الرسول الكريم محمد (ﷺ) فيما أهدى قباء (نوع من الملابس) وعشرون ثوباً من قفاطي مصر.

وقد ذكر المؤرخ الصابئ في كتابه (تحفة الأمراء في تاريخ الوزارة) إن إحدى جواري الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ / ٨٩٢ -٩٠٢م شكت مرة من مماطلة بعض أصحاب الدواوين في تسليم إقطاع وهبه الخليفة لها، فقال لها الخليفة كان الصواب أن تبعثي إليه بثياب وألطاف كما يفعل الناس، فكنتي تستغنين عن خطابي، ففعلت ما نصحها به وبعثت بثياب فاخرة وتم لها ما أرادت، ومن الأسباب الأخرى في تقديم صناعة المنسوجات هو.

٤- **الميل الطبيعي فيهم للإكثار من الملابس** وما وجدوا إلى ذلك سبيل إذ كانوا يعتقدون أن الملابس تكسب لابسها من الوجاهة ما تكبره في أعين الناس ويزيد من قيمته عندهم، وقد انعكس هذا الميل الفطري في كثير من أنواع الملابس والمنسوجات التي أشار إليها المؤرخون في كتبهم، وقد كان من شأن هذا الميل أيضاً أنه مهد السبيل إلى النهوض بهذه الصناعة فما كادت تجري الثروة بين أيدي العرب على أثر فتوحاتهم لأقطار ذات حضارة عريقة مثل بلاد الشام والعراق ومصر، حتى اقبلوا على الأقمشة يسرفون في اقتنائها ويدفعون بذلك النساج إلى التسابق في إجادة النسيج وفي ابتداع الأنواع المختلفة منها.

لقد تجلت عناية المسلمين بصناعة المنسوجات في عنايتهم بدور الطراز، وهذه الدور هي مؤسسات حكومية تعني بعمل المنسوجات التي تحتاج إليها الدولة مثل كسوة الكعبة والخلع ثم يضاف إلى هذا ما يحتاج إليه الخليفة شخصياً من ملابس وما تحتاجه حاشيته ورجال دولته منها. والطراز على النوعين كما دل على ذلك ما كشفته التنقيبات الأثرية

من منسوجات فهناك طراز خاص وهو المؤسسة الحكومية التي أشرنا إليها والى اليوم لا تزال بقية من هذا الطراز قائمة في السعودية وفي مصر والتي تعرف ب (مديرية الكسوة) وهناك طراز العامة وهذا إشراف الدولة على مصانع النسيج الأهلية.

أمثلة لبعض المنسوجات الباقية إلى يومنا هذا:

١- قطعة صوفية عثر عليها في صعيد مصر حملت اسم الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ) وتاريخ نسجها سنة ١٦٨هجرية وهذه القطعة تزدان بخمسة أشرطة في بعضها زخارف هندسية، وفي بعضها زخرفة على هيئة أسماك.

٢- قطعة من الكتان محفوظة الآن بمتحف برلين، وهذه القطعة تحمل اسم الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) ومنسوج عليها بخيوط من الحرير زخرفة هندسية وكتابية بالخط الكوفي نصه: (بسم الله بركة من الله لعبدالله هرون أمير المؤمنين صنعه مروان بن هادي

٣- قطعة في الكتان حملت اسم الخليفة العباسي الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ) وتزدان القطعة بزخارف هندسية وكتابية بالخط الكوفي منسوجة بالحرير المتعدد الألوان، والنص الكتابي: (بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين).

٤- قطعة قماش من عهد الخليفة المأمون ١٩٨ -٢١٨هـ، هذه القطعة محفوظة اليوم، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة من الكتان عليها نص بالخط الكوفي نقراء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله الأمام المأمون أمير المؤمنين أعزه الله مما عمل في طراز الخاصة سنة ست عشرة وما تبين).

المواد الأولية لصنع الأقمشة

صنعت الأقمشة منذ أقدم الأزمنة من المواد التالية:

١- **القطن:** نبات تعلم الإنسان زراعته منذ أقدم الأزمنة وقد ورد ذكر القطن منذ عهد الملك الأشوري سنحاريب (٧٠٥ – ٦٨١ قبل الميلاد) حيث ورد ذكره كما يلي:

« **الشجرة التي تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر**» – (فريال المختار: المنسوجات العراقية الإسلامية بغداد ١٩٧٦ ص١١) .

وقد نجح الإنسان في جعل القطن مصدر للخيوط استعملها في نسيج ملابسة، بعد أن تمر بعدة مراحل منذ اقتطاف جوزة القطن حتى غزل الخيوط.

وقد عرفت مصر زراعة القطن منذ أقدم الأزمنة، وقد تكون انتقلت زراعته إلى وادي الرافدين نتيجة للعلاقات بين الحضارتين.

٢- **الكتان:** المادة الثانية التي استخدمت في صناعة المنسوجات هو الكتان، وهو من المواد النباتية، وقد عرفت زراعة الكتان في العراق منذ أقدم الأزمنة وقد أطلق عليه لفظة (gade) في العصر السومري- الألف الرابع قبل الميلاد- وقد عرفت صناعة نسيج الكتان في المدن السومرية التالية(أور واريدو)، وفي العصر البابلي نسجت من الكتان الأزر النسائية والرجالية، وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن قطع من نسيج الكتان من العصر السومري، وقد استخدمت نسيج الكتان للإلهة والملوك وبعض الكهنة وطريقة عمله. فبعد قطع نبات الكتان قبل نضوجه كي تكون خيوطه ناعمة وبعد تجفيفها تحت أشعة الشمس تضرب وتمشط عندها تكون جاهزة للنسيج. (المختار: المصدر السابق ص١٢)

٣- **الصوف:** ومن مواد المنسوجات المهمة الصوف وعرف منذ أقدم الأزمنة، وقد عثر على نصوص مسمارية منذ العهد السومري تبين أنواع الخراف الصالحة أصوافها

للمنسوجات، إضافة إلى وجود المنحوتات والتماثيل الأشورية لذلك، وقد اشتهرت بابل في العصر البابلي بتصدير الأصواف الجيدة وكانت من أهم أنواع التجارة.

وكان الصوف بعد جزه من الخرفان يمر بعده مرحل منها تنقيع الأصواف في الماء للتخلص من الأتربة والشوائب ثم تشطف عدة مرات، وتجفف بالشمس، بعدها تبدأ عملية الغزل بواسطة المغازل حيث تكون بعدها جاهزة للنسج.

٤- **الحرير:** وعلى الرغم من احتكار الصينيون لمعرفة أسرار صناعة الحرير غير أن الأشوريين عرفوا صناعة الحرير واستخراج المادة الملونة من ديدان القز (الدكتور وليد الجادر: الحرف والصناعات ص١٠٥) وفي العصور اللاحقة احتكر الصينيون صناعة الحرير وأصبحت بلادهم الموطن الأصلي للحرير، ولكن القصة التي تذكر أن أميرة صينية كانت قد تزوجت بحاكم مدينة بخارى، وعند خروجها من الصين إلى مكان زوجها نقلت في شعر رأسها بويضات دودة القز إلى موطنها الجديد وبذلك خرج هذا السر من الصين إلى بلدان أخرى (د. عبد العزيز مرزوق الزخرفة والمنسوجة في الأقمشة الفاطمية، القاهرة ١٩٤٢ ص٤٢) .

أدوات صناعة النسيج

بعد الحصول على المواد الأولية من القطن والكتان والصوف والحرير حيث كانت تغزل بواسطة مغزل خشبي تلف عليه الخيوط المغزولة، وقد عرف المغزل منذ العصور القديمة السومرية وما بعدها.

وبعد إتمام عملية غزل المواد الخام تصبح جاهزة للنسج، ثم يأتي دور النول (Loom) وقد عرفت هذه الآلة منذ أقدم الأزمنة ويعرف أيضاً باسم (الجومة).

والنول معروف اليوم على نوعين:

أ- النول الأفقي (Hori Zontal Loom)

ب- النول العمودي (Vertical Loom)

ويتكون النول من عارضتين عموديتين تربط بينها عارضتان أفقيتان، وتشكل كل عارضيه أفقية بالعارضة العمودية زاوية قائمة في كل جهة، كما تمتد بين العارضتين العموديتين خيوط (السدى) الخيوط الأفقية، أما خيوط (اللحمة) الخيوط العرضية فتنزل من الأعلى بواسطة بكرات معلقة في سقف الغرفة، وعن طريق هذه البكرات تنزلق خيوط إلى النول فتدخل بالنسيج ويضاف إلى النول عادة إطار أو برواز يحصرها حاشية النسيج. (المختار: المصدر السابق ص١٨)

صباغة النسيج

لقد حرص الإنسان على تزين منسوجاته بالألوان منذ أقدم الأزمنة وكانت مصادر الأصباغ من مصدرين حيواني ونباتي إضافة إلى المعادن.

فاللون الأحمر نحصل عليه من لحاء شجر البلوط وهو مصدر نباتي أما نفس اللون من المصادر الحيوانية فقد كانت بعض الحشرات والديدان ومنها دودة القز أو القرمز وذلك بعد تجفيفها وغليها ثم وضعها في محلول ملحي حامض، أو من بعض القواقع البحرية حيث يستخرج اللون الأرجواني أما اللون الأزرق فيؤخذ من نبته النيل، ومن تجفيف وتحليل بعض الأشنات التي تنمو على الأشجار.

أما اللون الأصفر فنحصل عليه من نبات الزعفران والكركم، والإصباغ الصفراء تؤخذ من سحق أزهار وجذور النبات المجففة ثم ينقع المسحوق بماء بارد فينتج لون أحمر ثم يفصل بإضافة مادة قلوية إلى المحلول يكون أحد أطيافه اللون الأصفر، كما يحصل على اللون الأصفر من سحق ثمار شجرة الرمان ومن ثمار السماق.

أما اللون الأخضر فنحصل عليه من خلط مادة من اللون الأصفر مع مادة من اللون الأزرق فنحصل على اللون الأخضر ولتثبيت اللون على القماش استخدمت مواد مختلفة منها قشر الرمان وأشجار الفستق والجوز، وكذلك استخدام مادة الشب كمادة مثبتة.

الزخرفة على المنسوجات

كانت المنسوجات منذ أقدم الأزمنة قد حملت بعض الزخارف فقد كانت ملابس البابلين والأشوريين قد زخرفت بأشكال هندسية بسيطة كالخطوط المتقاطعة، كما عثر على بعض الملابس تحمل زخرفة مطرزة بخيوط وفيها العديد من الخرز والأصداف حيث ثبتت على حافات الثوب أو حافات الأكمام أو بخيوط ذهبية أو فضية.

وفي العصور التي سبقت الإسلام وخاصة العصر الساساني فقد حملت بعض الملابس زخارف نباتية أو حيوانية، كما حملت بعضها الأشكال الادمية، أما الأشكال الهندسية فقد كانت من الدوائر والمربعات أو المضلعات والجامات، والشرائط المضفورة ودوائر تمثل حبات اللؤلؤ، كما حمل بعضها الأشكال الحيوانية، كذلك شاعت في ذلك العصر القصص والأساطير الخرافية وقد حملتها منسوجاتهم، وحملت المنسوجات الساسانية رسوم بعض الحيوانات المتناظرة والمتقابلة مثل الأسود والبط وتفصل بين كل أثنين منهما شجرة تعرف بشجرة الحياة (المختار: المصدر السابق ص٢٥) ومن قطع المنسوجات الساسانية قطعة قماش من الحرير ذات لون أحمر محفوظة اليوم في متحف الفاتيكان، حملت زخرفة في وسطها ديك داخل جامة دائرية وتحيط بالجامة زخارف هندسية ونباتية .

المنسوجات الإسلامية

بعد أن خرج المسلمون من الجزيرة العربية بعد فتحهم لأقطار ذات حضارة واسعة ومهمة مثل بلاد الشام والعراق ومصر، فقد اختلفت الحال في جميع المجالات ومنها المنسوجات حيث ازدهرت هذه الصناعة لتلائم الحالة الجديدة التي انتقلت إليها الحضارة الإسلامية وقد ازدهرت العديد من المدن العربية في صناعة النسيج وخاصة ملابس الحرير والذي عرفه المسلمون باسم (القز) قبل غزله وسموه (أبرسيم) عند خلطه مع الصوف وسمي (خزا) وإذا ما صبغ الأبرسيم بالألوان سمي ذلك بالحرير، وشاع استخدام الحرير لأنه لم يحرم بالقرآن الكريم.

وفي العراق بعد الفتح الإسلامي له ازدهرت العديد من المدن في تطوير صناعة المنسوجات ومنها المدائن - عاصمة الدولة الساسانية بالعراق قبل الإسلام.

ومن المدن الأخرى كانت الأنبار حيث شاع نسيج العباءات من الصوف الأسود وتعرف باسم – القطوانية كما كانت مدينة الحيرة قرب الكوفة مشهورة بصناعة المنسوجات منذ فترة قبل ظهور الإسلام حتى أنها كانت تجهز البلاد الساسانية من المنسوجات الصوفية الجيدة والكتانية والحرير.

- وقد وجد على أحد جدران دير هند الأكبر بالحيرة أبيات من الشعر في مدح آل المنذر ومن بينها والقز والكتان أثوابهم لم يجلب الصوف لهم حالب.

- وقد استمرت الحيرة بعد الإسلام بإنتاج المنسوجات الجيدة (المختار: المصدر السابق ص٤٧)

ومن مدن العراق الأخرى والتي كانت مشهورة بصناعة النسيج النعمانية (قرب مدينة واسط) وكانت منسوجاتها تضاهي منسوجات البصرة، وقد شاعت الملابس المصنوعة بالنعمانية أيام الدولة العباسية، ومن مدن العراق الأخرى التي شاع فيها صناعة المنسوجات مدينة النرسيان ما بين الكوفة و واسط وعرفت منسوجاتها بالمنسوجات النرسية.

كما عرفت حزة بعمل المنسوجات وهذه بلدة صغيرة بالقرب من مدينة الموصل شمال العراق.

وكانت الموصل من أشهر المدن في إنتاج المنسوجات ومنها القطنية، والصوفية، والمنسوجات الحريرية المزينة بخيوط الفضة والذهب، كما برع الموصليون بنسيج المنسوجات الكتانية، وكذلك قماش الشاش حيث كانت له شهرة كبيرة، وقد اشتهرت بعض المدن في إقليم كردستان العراق، وكذلك في جنوب العراق وخاصة ميسان ودست ميسان حيث كان ينتج وينسج الخز والحرير والدرانك إضافة إلى المنسوجات الصوفية حيث تصنع منها الستائر والبسط وأنواع الفرش.

وكذلك كانت الكوفة من المدن المشهورة بصناعة المنسوجات والعديدة من المدن الأخرى.

لقد كشفت لنا المنسوجات الكثير من المعلومات الأخرى فقد حملت بعض المنسوجات الزخارف بكافة أنواعها الآدمية والحيوانية والنباتية والنصوص الكتابية من أنواع الخط الكوفي- البسيط، والمورق، والمزهر، والمضفور والمربع، كما حملت أنواع الخط النسخي مثل الثلث بأنواعه والطومار والرقعة، والديواني، والطغراء، وبقية الأنواع، من ذلك يمكن القول أن دراسة المنسوجات قد قدمت للفنون الزخرفية الإسلامية الكير من المعلومات. (١)

(1) ١- أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية القاهرة ١٩٥٦

- السيدة فريال داود، المختار : المنسوجات العراقية الإسلامية بغداد ١٩٧٦.

- الدكتور عبد العزيز حميد: ملابس الخلفاء ،مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٨٠

- الدكتور صلاح حسين العبيدي : المنسوجات الإسلامية.